الفصل 14
مساء الخير يا سايغون

كانت ليلة التاسع عشر من شهر مارس عام 2003م ليلةً باردةً ورطبةً في واشنطن، كما لو كانت السماء تذرف دموع الألم، أو ربما كانت تذرف دموعي.

كان مجتمع السلام كله قد أصيب بفجيعة؛ لأنَّ الولايات المتحدة وبريطانيا شنتا في تلك الليلة ما تباهى العسكر أنَّه حملة (الصدمة والرعب)، التي ستمثل أقسى عملية قصف جوي في تاريخ البشرية، وقد نقلت محطة سي إن إن الإخبارية هذا الكابوس كاملًا إلى بيوتنا مباشرةً، إلى بيوتنا وغرف نومنا مباشرةً، وشعر كثيرون بخوف شديد، وهم يشاهدون الحرائق، ويسمعون دوي الانفجارات الرهيبة وهي تُمزِّق سماء بغداد.

بعد تلك الليلة لن تعود الولايات المتحدة مشعل الإنسانية والنزاهة الأخلاقية في العالم؛ فمع كل قنبلة كانت تسقط وتنفجر كانت منظومة القيم والفضائل الأمريكية تتحطَّم معها، وتتناثر في اللهب، لقد سقطنا عندما سقطت بغداد.

لكنَّ كثيرين منا لم يدركوا ذلك في حينه؛ إذ لم نكن نتصور كيف يمكن لنفوذ أمريكا ومكانتها أن يرتبطا بتصورات الدول والشعوب الأخرى، فمن دون هذا الاعتراف بطيبة أمريكا الموروثة، فإنَّ الدول الأخرى لن تثق بقيادتنا الأخلاقية.

وأعتقد أنَّ التاريخ قد أثبت فعلًا أنَّ أمريكا فقدت في تلك الليلة المروعة عرش القوة العظمى.

obeikan.com

لقد بات علينا أن نواجه كثيرًا من تساؤلات (ماذا لو)؛ فمثلًا: ماذا لو أنَّ السلام انتصر بدل الحرب؟ كيف يمكن أن يبدو بلدنا اليوم؟ هل ستكون لدينا سياسة إصلاح صحي أفضل؟ هل سنكون أقوى عسكريًّا؟

هل سيظهر في الأفق دلائل على هجمات إرهابية محتملة؟ هل ستكون لدينا فرص عمل أفضل للطبقة الوسطى؟ هل ستواجه حكومتنا جبال الديون الهائلة والخادعة؟ لن نعرف ذلك، نحن نُخمِّن فقط، من المؤكد أنَّنا سنخسر الكثير، وأنا لا ألوم الشعب الأمريكي في عدم إدراكه تكلفة الحرب على العراق؛ لأنَّ الصورة لم تتضح له بعدُ، أما بقيتنا، بعيونهم الخائفة، فقد اكتشفوا أنَّ أمريكا العظمى، حامية الضعفاء والمظلومين، قد اختفت من عين العالم في تلك الليلة، في تلك الليلة وقف مكانها طاغية عملاق.

حسنًا، فأنا لا أقبل بهذا؛ لأنَّني لست مستعدةً لتسليم بلدي إلى نفر من الرجال الأغبياء ليتمكنوا من تحطيمنا. فهذا لا معنى له بالنسبة إليَّ؛ لأنَّه ربما يكون في أمريكا قادة طغاة، لكنَّني لا أعتقد أنَّ الشعب كذلك، وأنا شخصيًّا أرفض أن يخطف أي مسؤول في البيت الابيض كل ما نعتز به في بلدنا لتنفيذ مخططات الثراء السريع لأصدقائه في مؤسسات الدفاع والنفط.

ولكن، ما الذي يمكن للإنسان العادي فعله حيال ذلك؟ هذا سؤال صعب ولا شك، واليوم يعتقد بعض الأمريكيين أنَّ احتلال وول ستريت هو الحل، فقد أخذت هذه الحركة تزداد قوةً وعددًا لتقديم الإدارة الأمريكية للمساءلة أمام الشعب.

لقد تجمَّع الأمريكيون من مختلف الاتجاهات السياسية، وقرَّروا المقاومة عندما يتحدى الآخرون حرياتهم، وأود أن أقول لرئيس العصابة: «نحن نرفض أن نُذَلَّ أو نُهان على أيدي السياسيين المتلاعبين في الكونغرس. إنَّ ضعف أداء القيادة هو إهانة لنا، وإنَّ تطرف السياسات يثير غضبنا؛ فنحن نريد سياسات عملية، وقد نجحنا معًا في إجبار واشنطن على وضع أولويات الطبقة الوسطى على رأس برامجها»، لقد استعاد الشعب السُّلْطة، في تلك الليلة الماطرة ظل سؤال يتبادر إلى ذهني حائرًا من دون جواب: ما الذي يمكن فعله؟

قضيت تلك الليلة الكئيبة وأنا أقود سيارتي في الشوارع الخلفية لميريلاند، أُفكِّر في ذلك السؤال، وأستمع إلى آخر أخبار الحرب من الإذاعة، لم أستطع العودة إلى البيت؛ لأنَّني لم

أرغب في رؤية الانفجارات والأجواء الملتهبة على شاشات التلفزة، لم أستطع التوقف عن التفكير، كنت حزينةً، وأتميَّز غيظًا، وصدقوني، يوجد في جعبتي الكثير الذي يثير غضبي.

فأنا لا أستطيع أن أنسى أنَّ العراق قد حاول استئناف عمليات التفتيش عن الأسلحة منذ الأيام الأُولى لإدارة بوش، كان هذا مؤشرًا قويًّا على أنَّ العراق لم يكن يخفي أسلحة دمار شامل، لقد ظلت الولايات المتحدة تتلكَّأ مدَّة سنتين قبل الموافقة على إرسال فرق التفتيش، وكانت تلك المناورات الإعلامية جميعًا من واشنطن ولندن تهدف إلى إخفاء خوفهما من انكشاف اللعبة، لقد سبَّب لي ذلك حزنًا شديدًا.

والآن، ها هي واشنطن تقصف بغداد في محاولة هوجاء لإيجاد صلة للعراق بهجمات الحادي عشر من سبتمبر، كانت هذه أيضًا عملية خداع أخرى لم تصمد أمام تصميم العراق على التعاون في الحرب على الإرهاب، ألا يجعلك هذا تصاب بالجنون؟!

في الليلة التاسعة عشرة من شهر مارس عام 2003م كدت أفقد صوابي وأنا أسأل نفسي: هل يمكن أن تكون الحرب على الإرهاب مجرد خدعة شنيعة؟ في رأيي، لقد أضاع قادتنا بهذا الغباء المتعمَّد فرصة أمريكا للتعافي.

ولوضع الأشياء في سياقها الصحيح، أعتقد أنَّه كان في العالم - قبل هجمات الحادي عشر من سبتمبر، وغزو العراق- نحو (200– 300) شخص فقط من الذين نذروا أنفسهم للقضاء على رموز الولايات المتحدة، ويوجد عدد أكبر من ذلك يودون القضاء على إسرائيل، لكنَّ الإرهابيين المتشددين الحقيقيين كانوا يحلمون بالمجد عن طريق مهاجمة الولايات المتحدة، وهذا العدد لا يملأ نصف قاعة محاضرات في مدرسة ثانوية صغيرة.

أما اليوم، وبفضل غوانتانامو وحرب العراق وسجن أبو غريب، فأُقدِّر هذا العدد بنحو (3000– 5000) فرد من الذين وهبوا حياتهم لمهاجمة الولايات المتحدة بأي طريقة ممكنة؛ لذلك ضاعفت هذه الحرب على الإرهاب عدد الإرهابيين إلى مئتي ضعف، وهذا ما يجعلني أقول إنَّ هذه الحرب فاشلةً تمامًا؛ فإذا كان عدد الإرهابيين قد أصبح اليوم أكثر من عددهم عندما بدأنا محاربتهم، فهذا يعني أنَّ إستراتيجيتنا أفضت إلى نتائج عكسية، ألا يجعلك هذا أيضًا تشعر بالغضب؟!

بينما كنت أقود سيارتي وحيدةً في تلك الليلة الممطرة المخيفة تدافعت إلى عقلي صور الانفجارات العنيفة في بغداد، ووحشية قادتنا في قتل المدنيين العراقيين الأبرياء باسم الشعب الأمريكي، أخذت أرتجف غضبًا؛ لأنَّ قادتنا سببوا هذا الدمار كله، مستهينين بحياة البشر وبعقولنا، وهم يعرفون مدى الخيارات التي كانت متوافرة لحل النزاع قبل الحرب. ولو أنَّ أحدكم قال لي في تلك الليلة الرهيبة إنَّهم سيلومونني - خلال سنة- على إعطاء معلومات استخباراتية رديئة قادت إلى هذه الحرب، لشككت في سلامة عقله، ولكنَّ هذا ما حدث عندما روَّجوا لأكثر الأكاذيب خسَّةً وحقارةً في واشنطن، وهذا ما يصور حقيقتهم.

في تلك الليلة استمعت إلى أغنية صورت الصدمة التي كان يعانيها نشطاء مناهضة الحرب، كانت تلك أغنية ريتشارد هاريس (حديقة ماك آرثر) التي تقول:

«لم يكن الربيع قط بانتظارنا يا صديقتي ... لقد فاتنا منذ زمن بعيد ... حديقة ماك آرثر تغرق في الظلام ... والسكر الأخضر يذوب ... بعد أن ترك أحدهم الكعكة تحت المطر ... سوف تكون لي أغنية أخرى أُغنيها ... وسوف يكون لي حلم آخر ... يحمله أحدهم إليَّ».

لقد كانت أغنيةً عاطفيةً حزينةً، جعلتني أُوقف سيارتي إلى جانب الطريق؛ لأبكي مثل بغداد، كان الألم يحرق روحي؛ فقد عملت جاهدةً من أجل بناء مشروع سلام دائم يُنهي النزاع الأمريكي مع العراق من دون أن تسيل قطرة دم واحدة، لقد استغرق هذا المشروع سنتين من العمل مع المسؤولين العراقيين ودبلوماسيي الأمم المتحدة، بإشراف مسؤولي وكالة الاستخبارات الأمريكية المغرورين الذين قدَّموا مطالب استفزازية لحماية المصالح الأمريكية، لقد بدأنا إعداد هذا المشروع قبل ظهور التهديدات بالحرب، وعملنا على تحقيق الأهداف الأمريكية كلها، وقد نجحنا في حل القضايا جميعها.

«أحدهم ترك الكعكة تحت المطر... »[264].

وضعت رأسي على المِقْوَد، ثم أخذت أشهق بالبكاء وأنا أستمع إلى الأغنية، لقد كان كل ما عملناه صحيحًا. كان مشروع السلام إيجابيًّا بالنسبة إلى الولايات المتحدة أولًا وأخيرًا، وكان أيضًا لصالح حلفائنا في أوروبا والشرق الأوسط، وأعتقد أنَّه كان لصالح الشعب العراقي كذلك، ولكن، لم يكن لهذا كله أي قيمة، ولم نستطع التغلب على جنون قادتنا.

«وبعد كل هذا الحب في حياتي ... سأظل أُفكِّر فيك.

وأتساءل: لماذا؟» [265].

لقد سألت نفسي ألف مرَّة: لماذا فعلوا ذلك؟، وقد طلب إليَّ كثيرون أن أُفسِّر لهم ذلك، لكنَّني - صراحةً- لا أجد جوابًا؛ لقد كانت الحرب على العراق غير ضرورية، ويمكن تجنبها، لقد ضاعت هذه المواهب الإنسانية والطموحات والأحلام كلها من أجل لا شيء، ومن دون غاية أو مُسوِّغ.

فكَّرت في هوفين والدكتور فيوز، وفي السنوات التي قضيناها معًا، التي انتهت فجأةً من غير تفسير أو وداع، ثم فكَّرت فيما خسرناه في تلك الليلة على مستوى الأمة.

يا بلدنا، ما الذي فعلناه بك؟ بكيت ورأسي على المِقْوَد، وبقيت أسأل نفسي: ما الذي يمكن فعله؟ كيف يمكن للشعب إحياء القيم الجميلة لبلدنا، في حين يريد قادتنا تحطيمنا على الصخور، بصرف النظر عن النتائج؟

بقيت أقود سيارتي إلى أن نَفِدَ الوقود، وفي نهاية المطاف اعتقدت أنَّني توصلت إلى جواب، كان جوابًا بسيطًا جدًّا، لكنَّه بدا معقولًا في الساعة الثانية صباحًا.

كان الجواب: إنَّ أمريكا ليست مُلْكًا للسياسيين، ولا يحق لهم مصادرتها أو تدميرها.

إنَّ أمريكا هي مُلْكٌ للشعب، وعلينا أن نستردها منهم.